المجلة العربية، جامعة داكا

المجلد السابع عشر، يونيو ٢٠١٥ و يونيو ٢٠١٦ م

وصف الطبيعة والعمران فى شعر البحترى

محمد بلال حسين *

Abstract

Al-Buhtury was a famous poet of Abbasid era of Arabic Literature. He worked in all the known branches of Arabic poetry. He wrote excellent encomiums, love poems, elegies and satires. However, he not only excelled in describing nature and natural sceneries, he was also the first to describe buildings and palaces in Arabic Poetry side by side. These poems were in rhymic verses, aesthetically satisfying and highly imaginative. In his poems he described natural sceneries; rains, air, gardens, flowers, the spring season, green plants and trees, water spring, wild animals like horses, tigers, lions etc. He also described the palaces of the Abbasid Caliphs as well as their ponds, urban sceneries, wells etc. Through these he attained the position of one of the most eminent poets of the Abbasid era. This article is a humble endeavor to highlight this aspect through his creative works. His mastery is sketching natural beauties and constructive bounties which will be blinking in this short presentation. His style and fashion of unveiling natural beauties was a unique dimension in the Arabic poetry.

المقدمة

إن الشعراء الذين تنور بهم العهد العباسى الذهبى وذاع صيتهم ورسخت مكانتهم فى حقل الأدب العربى كان البحترى فى الصف الأول بين هؤلاء البارعين المتفضلين. وهو الكوكب الدرى فى آفاق اللغة العربية وآدابها. قد اتبع هذا الشاعر العبقرى الأساليب القوية الممتازة فى أشعاره، ما لا يداينه أحدٌ سواءه، وقد تشرف بشرفه عصره. وهو أول من حاول أن يجعل للشعر

* أستاذ مساعد، قسم العربية، جامعة داكا

أفاقا وسيعة جديدة، مثلا أنه وصف الطبيعة والمناظر، ووصف العمران والبركة والحوض والمنشآت الملحقة بالقصور والسفائن التى ترسو على شاطئ دجلة حينا كالقصر المشيد الذى يتخذ للاستراحة واللهو. اعترف الجميع من أدباء العالم ماضيا وحالا بمكانته السامية وقدرته المجلوة وعبقرية الشعرية، وفكره العميق، وأفاقه الوسيعة البسيطة. لذلك يقال له شاعر الطبيعة وشاعر العمران. أحاول أن أجمع في المقالة هذه شيئا من حياته ومقدرته الشعرية في وصف الطبيعة ووصف العمران، والبيان عنه كما يلي.

نبذة من حياة البحترى:

كان البحتري (٨٢١-٨٩٨م) أحد أشهر شعراء العرب في العصر العباسي الذهبى. إسمه أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى. واتفق الرواة المؤخرون في الأدب العربى على أن إسمه الوليد ولقبه البحترى. وذلك نسبة إلى بحتر- أحد أجداده او نسبة إلى عشيرته الطائية "بحتر"[١] أما كنيته فأبو عبادة و أبو الحسن، والأولى أشهر[٢] واختلفت الروايات فى ذكر إسمِ أبيه – فأكثر الرواة على أن إسم أبيه "عبيد"[٣] – أما في رواية الأغانى فقد جاء إسم أبيه عبيد الله [٤]- وللبحترى قصيدة يفتخر فيها بآبائه ويذكر معهم عبيدًا ولا يذكر عبيد الله اذ يقول :

"ومسهراً، وجديا، وتدولا، وبحتراً، وعتود.[٥]

ولد البحترى في منبج إلى الشمال الشرقي من حلب سنة ٢٠٤هـ الموفق ٨٢١م، هو يمني قحطاني من ناحية أبيه وعدناني من ناحية أمه، ودرس فى المنبج علوم الدين واللغة والأدب. ولما آنس أبوه من موهبته الشعرية رعاها بحفظ أشعار الأقدمين ويدل عليه قوله:

أعمرو بن شيبان، وشيانكم أبى * إذا نسبت أمى وعمركم عمرى[٦] قوله :

حياته الشعرية :

واتبع البحتري خطو الشاعر "أبي تمام"(١٨٨-٢٣١ه) في الشعر فكان ينشد الشعر ويستخدم البديع كمثله، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى، واستمد معاينة من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق ، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته وروعته، وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله "أنا وأبو تمام حكيمان، والشاعر البحتري"، ثم انه اخترع للشعر طريقة خاصة في الجزالة والعذوبة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدرسته، اتبعها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء، وعرفت فيما بعد بطريقة أهل الشام وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء، فإن بضاعته فيه نزره وجيده منه قليل.

ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح، ولم يسلم شعره من الساقط الغث لكثرته، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه، والقدرة على تصوير أخلاق الممدوح، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة، كوصف إيوان كسرى، وبركة المتوكل، وقصر المعتز بالله. وميزات وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالغزل. وتقع حياته الشعربة فى ثلاثة مراحل:[٧]

(الأول) مرحلة نشأته الأدبية: كانت عشيرته "بحتر" تعيش بين البداوة والحضارة، ثم ذهب إلى حلب، وتنقل بين مدن الشام وقراه يمدح العامة والأمراء الصغار تكسباً بشعره. وفي حمص التقى بأبي تمام، وكان لقاؤه به نقطة تحول في حياته، إذ أولاه أبو تمام (١٨٨-٢٣١ه) رعايته وعنايته لما لمس فيه من شاعرية، ولأنه ينتمي إلى طيء قبيلة أبى تمام، (١٨٨-٢٣١ه) ولذلك قال له أبو تمام "أنت والله يا بنيّ أمير الشعراء من بعدي"." أما هذه مرحلة تتعلق بنشأته وكان أكثرها فى منبج، على أنه قام بزيارة المدن السورية من مثل حلب وحمص والمعرة – وقد التقفى فى الحمص بأبى تمام (١٨٨-٢٣١ه) شيخ الصناعة الشعرية وتعلم منه ألية البديع فى الشعر.[٨]

(الثانى) مرحلة تتعلق بالعراق : وفى هذه المرحلة ذاع صيته فى الافاق ونال من رجال الخلافة جوائز فاخرة بعد أن مدهم مدها باهرا، وتنقسم هذه المرحلة الى عهدين :

عهد المتوكل بن المعتصم (خلافته ٢٣٢-٢٤٧هـ /٨٤٦-٨٦١م) ووزيره الفتح بن خاقان ثم عهد من تبعه من الخلافاء وبين هذا العهدين مدة أقام فيها فى منبج - واتصل من الشعراء الذين اتصل بهم وعاصروه غير أبي تمام: دعبل الخزاعي، وابن الرومي، وعلي بن الجهم، وابن المعتز، وابن الزيات، وابن طاهر.[٩]

(الثالث) مرحلة العودة إلى مسقط رأسه : نشأ البحترى فى جوار حلب، حتى إذا برع وحذق صناعة الشعر سافر العراق واتصل ببلاط المتوكل ولازمه – ولكن إذ حدثت الاضطراب التى قتل فيها الخليفة المتوكل ووزيره الفتح سنة ٢٤٧ هـ كره البقاء فرجع إلى وطنه ولكن لم يقم هناك وقتا طويلا – فعاد إلى العراق واتصل بالخلفاء والأمراء وأنشد قصائد فى مدحهم ولاسيما الخليفة المعتزبن المتوكل (خلافه ٢٥٢-٢٥٥ه / ٨٦٦-٨٦٨م) وبقى إلى أخر حكم الخليفة المعتمد بن المتوكل (٢٥٦-٢٧٩ه / ٨٦٩-٨٩٢م) ثم رجع إلى سوريا[١٠] واستقر فى منبج سنة ٨٩٢م وتوفى فيها بمرض السكتة سنة ٢٧٦ هـ الموفق ٨٩٧م[١١]

اتصل البحترى بسبعة من كبار الخلفاء العباسيين وبعدد أوفر من الأكابر ورؤساء القوم ونال منزلة عالية ولم يكن مسرفا فجمع مالا كثيرا[١٢]- قال ابن رشيق كان البحترى مليا فاضا كسبه من الشعر وكان يركب فى موكب من عبيده-[١٣] ذكر ابن خلكان أنه كان يحتاج للترداد إلى الوالى بسبب مصالح أملاكه[١٤]

أثاره: وقد صنف البحترى كتبا مهمة، وهى-

١. ديوان البحترى : له ديوان صخم فى الشعر يحتوى فيه موضوعات الشعر العربى من المدح والهجاء والرثاء والفخر والعتاب والوصف و إلى ذلك، والوصف خير ما فى هذا الديوان[١٥]

٢. كتاب معانى الشعر : للبحترى أيضا كتاب معانى الشعر، طبع فى الآستانة سنة ١٢٨٧ هـ

٣. كتاب الحماسة : للبحترى حماسة مثل حماسة أبى تمام لكن لحماسته مميزات على حماسة أبى تمام فمنها كثرة الأبواب، لأن حماسة أبى تمام مؤلفة من عشرة أبواب و حماسة البحترى من ١٧٤ بابا تتضمن معظم المعانى الشعرية وقد رواها نحو ٦٠٠ شاعر أكثرهم من الجاهليين والمخضرمين – طبيعت فى ببيروت سنة ١٩٧٠م وفى ليدن سنة ١٩٠٩م[١٦]

وصف الطبيعة في شعر البحتري:

وكان الشاعر البحتري في وصفه شاعر الخيال الخصب، والصفاء، أما موضوعات وصفه فطبيعة والعمران، أخذ معانى اشعاره من البداوة والحضارة، وقد استمد البحتري من الحضارة بعض الترابط الفكري، والتصويري، وحسن التأليف مع أركان التشبيه واستمد من البداوة ماديتها المسيطرة، ونقلها الصادق، وتجسيدها التضخيمي، ولم يغرق في التعقيد والزخرفة البديعية. وصف البحتري من مشاهد الربيع، والمطر والأزهار والذئب والأسد والفرس أما الربيع فقد جعله مهرجان الوجود وشخَص كل ما فيه وأبرز فيه يقظة الطبيعة ووصف البحتري من العمران بركة المتوكل وإيوان كسرى. البحتري شاعر البداوة والحضارة ورجل النقل والتأمل، ورجل البناء الوصفي الفني والصناعة البديعية الجميلة وشاعر الغنة الساحرة. أما بالنسبة لوصف الطبيعة فقد كان البحترى تقليديا فى الأغلب والأعم إلا أنه ترك فى بعض القصائد لمسات من الأصالة والإبداعية. فإنه اختار لنفسه مسلكا طريقا يشعر القراء بمحسوسيه اللوحات الطبعية حتى يتمثل فيها التناغم بين الحركة والحياة والموسيقى جميعا. وقد حشد البحترى أتناء وصف الطبيعة مشاهد من الطبيعة من مثل الرياض والانهار

والزهور والامطار والحيوانات وما إلى ذلك.[١٧] فنراه يقول في وصف الطبيعة :[١٨]

سرى البرق يلمع في مزنةٍ - تمدّ الى الأرض أشطانها
فكم بالجزيرة في روضةٍ - تضاحك دجلة ثغبانها
تريك اليواقيت منثورةً - وقد جلّل النّورُ ظهرانها
هذي الرياض بدا لطرفك نورها - فأرتك احسن من رباط السندس
ينشرن وشياً، مذهباً، ومديحاً - ومطارفاً نسجت لغير الملبس

وصف الرياض : احتوى البحترى فى قصيدته مناظر الطبيعة من وصف الرياض والزهر والمطر والربيع والحيونات الوحشية كالفرس والأسد والذئب وغير ذلك من الانعام والبهيمة. الرياض تنهز الناس بمناظرها الجميلة، ويسربها كل من زارها فقد قال البحترى فى وصف الرياض[١٩]

ورَوضٍ كَساهُ الطَّلُّ وَشْياً مُجَدَّدا - فأَضْحَى مُقيماً للنُّفوسِ ومُقْعِدا
إذا ما انْسِكابُ الماءِ عايَنْتَ خِلْتَهُ - وقد كَسَّرَتْهُ راحةُ الرّيحِ بُرّدا
وَإِنْ سَكَنَتْ عنهُ حَسِبْتَ صَفاءَهُ - حُسامًا صقِيلاً صافِيَ المَتْنِ جُرّدا
وَغَنَّتْ به وُرْقُ الحَمائمِ حَوْلَنا - غِناءً يُنَسِّكَ الغَريضَ وَمَعْبَدا
فلا تَجْفُوَنَّ الدهرَ ما دامَ مُسْعِدًا - وَمَدّ السُّرى ما قد حَبَاكَ به يَدا
وَخُذْها مُداماً من غزالٍ كأَنَّهُ - إذا ما سَقَى بَدْراً تَحمَّلَ فَرْقَدا
أَخذَت ظُهورُ الصَّالِيَّةِ زينةً - عَجباً من الصَّفراءِ والحَمراءِ
نسجَ الربيعُ لرَبْعِها ديباجةً - من جوهرِ الأنوار بالأنواءِ

ففى وصفه الرياض التى لوّنها الربيع بألوانه الزاهية ، نراه يتجاوز تصوير المناظر الخلابة إلى الامتزاج بالطبيعة ومشاركتها الفرحة.[٢٠]

وصف الذئب : أن البحترى قد ذكر فى أشعاره الآتية وصف ذئب قد لقيه فى الطريق، وذكر أن ذئبا ملئ العين.[٢١] وكان وصفه هذا متصفا بالحضارة ومن اجمل أوصافه الأبيات الأتية حيث قال الشاعر[٢٢]

ولیلٍ كأنَّ الصُّبحَ في أَخرَياتِهِ - حُشاشَةُ نَصْلٍ ضَمَّ إِفْرِنْدَه غِمْدُ
تَسرْبلتُه والذِّئبُ وَسْنانُ هاجِعٌ - بعَينِ ابنِ ليلٍ مالهُ بالكَرى عَهْدُ
أُثِيرَ القَطا الكُدْرِيَّ عن جَثَماتِهِ - وتأَلَفُنِي فيهِ الثّعالِبُ والرُّبْدُ
وأَطْلَسَ مِلْءِ العينِ يحْمِلُ زَوْرَهُ - وَأَضْلاعَهُ من جانِبَيْهِ شوًى نَهْدُ
له ذَنَبٌ مِثْلُ الرِّشاءِ يَجرُّه - وَمَتْنٌ كَمَتْنِ القوس أَعْوَجُ مُنْأَدُّ
طَواهُ الطَّوى حتى استَمَرَّ مَريرُهُ - فما فيهِ إلاَّ العَظْمُ والروحُ والجِلْدُ
يقضْقِضُ عُصْلاً في أَسَرَّتِها الرَّدَى - كقَضْقَضَةِ المقْرورِ أَرْعدَه البَرْدُ
سَما لِيْ وبي من شِدَّةِ الجوع ما بِهِ - بَبَيْداءَ لم تُحْسَسْ بها عِيشَةٌ رَغْدُ
كِلانا بها ذِئبٌ يُحَدِّيُ نفسَهُ - بِصاحِبِهِ، والجَدُّ يُتعِسُهُ الجَدُّ
عَوى ثُمَّ أَقْعَى وَارْتَجَزتُ فِهِجْتُهُ - فأَقْبَلَ البَرْقِ يَتْبَعُهُ الرَّعْدُ
فأَوْجَرْتهُ خَرْقاءَ تَحْسِبُ رِيشَها - على كوْكَبٍ يَنْقَضَّ والليلُ مُسْوَدُّ
فما ازْدادَ إلا جُرْأَةً وصَرامَةً - وأَيْقَنْتُ أَنَّ الأَمْرَ منهُ هو الجِدُّ
فأَتْبَعْتُها أُخرَى فأَضْلَلْتُ نَصْلَها - بِحَيْثُ يكونُ اللُّبُّ والرُّعْبُ والحَقْدُ
فخَرَّ وقد أَوْردْتُهُ مَنْهَلَ الرَّدَى - على ظَمَإٍ لو أَنَّهُ عَذُبَ الوِرْدُ
وقُمْتُ فَجمَّعْتُ الحَصى واشتَوَيْتُهُ - عليهِ وللرَّمضاءِ مِنْ تَحْتِهِ وَقْدُ
ونِلْتُ خَسِيساً منهُ ثُمَّ تَرَكتُهُ - وَأَقْلَعْتُ عنهُ وهو مُنْعَفِرٌ فَرْدُ
لقد حَكمَتْ فينا الليالي بِجَوْرِها - وحُكْمُ بَناتِ الدهرِ ليس لهُ قَصْدُ

ذكر البحترى فى هذه الأبيات أن الذئب اصابته الجوع فاصبح غاضب وعانف ، وضرب الذئب أنيابه بعضها على بعض لشدة عنفه وفى تلك الأنياب موت وهلاك. والبحترى فى وصف الذئب شاعر وصفى قصصى كإمرإ القيس فى وصف صيده. ووصفه للذئب أتم واكمل[٢٣]

وصف الربيع : إن البحترى ماهر كبير فى الوصف، فاق البحترى فى وصف الربيع على أقرانه، فى قصيدة يمدح بها الهيثم بن عثمان الغنوىّ[٢٤] وقصر وصفه له على يقظة فى الورد، الشجر، النسيم. ومن أجمل أشعاره

وأبدع وصفًا تلك الأبيات التي يصف فيها الطبيعة الخلابة في فصل الربيع حين قال[٢٥]

أتاك الربيع الطُلْقُ يَخْتالُ ضاحِكاً - مِنَ الحُسْنِ حَتَّى كادَ أَن يَتَكَلَّما
وقُدْ بَبْه النَّوْرُوزُ في غلَسِ الدُّجَى - أَوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأَمْسِ نُوَّما
يُفتَّقُها بَرْدُ النَّدى فكأنَّهُ - يُبُثُ حَديثاً كانَ أَمْسِ مُكتَّما
ومنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبيعُ لِباسَهُ - عَلَيْهِ كَما نَشَرَّتَ وَشْياً مُنَمْنما
أَحَلَّ فأَبْدَى لِلعُيُونِ بَشاشَةً - وكان قذًى لِلعَيْنِ إِذْ كان مُحْرِما
ورَقَّ نَسيمُ الرَّيحِ حَتّى حَسِبْتَهُ - يَجِيءُ بأنفاس الأحبَّةِ نُعَّما
فما يَحبِسُ الرَّاحَ التي أَنْتَ خِلُّها - وما يَمْنَعُ الأَوْتارَ أَنْ تترَنَّما؟
وما زِلْتَ شَمْساً للنَّدامى إذا انْتَشَوْا - وراحُوا بُدوراً يَسْتَحِثّون أَنْجُما
تَكَرَّمْتَ مِنْ قَبْل الكُؤوس عَلَيْهِمِ - فما اسْطَعْنَ أَنْ يُحْدِثْنَ فيكَ تَكرُّما

وصف المطر : المطر عنصر مهم من عناصر الطبيعة، فقد انشد فيه شعراء الجاهلية والإسلام والشعراء فيما بعد فقد وصف البحترى المطر بما فيه من سحب وبروق[٢٦] حيث قال البحترى :[٢٧]

ما زالَ يَسْكُبُ سَحًّا مُسْبِلاً غَدَقاً - لا يَسْتَفيقُ وَلي عَيْنٌ تُبارِيهِ
سَحَّ بِسَحَّ وَإِسْبالاً بمُسْبَلَةٍ - دَمْعُ يُبوحُ بشَجْوٍ كُنْتُ أُخْفيهِ
ثُمَّ انْجَلى ودُموعي غَيْرُ راقِئَةٍ - والقَلبُ فيهِ مِنَ الأَشْجانِ مافيهِ
شَوْقاً إِلى رَشإٍ لا الشَّمْسُ تُشْبِهُهُ - ولا الهِلالُ إِذا تَمَّتْ لَياليهِ
لَكِنَّهُ فِتْنَةٌ في الأَرْضِ عارِضَةٌ - يُبْلي فُؤَادي بِلا جُرْمٍ وَيُضْنيهِ
وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنّي مُغرَمٌ كَلِفٌ - فاسْتَشْعَرَ العُجْبَ في ضَنٍّ وفي تيهِ

فى هذه الأبيات تشبه الشاعر المطر بالدموع، فقطرات المطر تستثير دموعه التى يسفحها لفراق صاحبته مع اسلوب أنيقة[٢٨]

وصف العمران في شعر البحتري: كان البحترى سبق كل من اسهم فى وصف العمران وبرع فيه وبلغ فيه درجة شامخة. فقد وجد فى شعره القراء ألوانا من مظاهر العمران متمثلة فى وصف إيران كسرى وقصر المتوكل،

بركته وحوض المعتز والسفينة التى استخدمت لنزهة الخليفة المعتز والعيون التى ثم إقامتها لسقاية الحجاج بالاضافة إلى وصف القصور والمدنية العباسية. وغير ذلك من القصور ومظاهر الحضارة والمدينة فى تلك الوقت واشهرها كما فى تالية.[٢٩]

إيوان كسرى :

سافر البحترى إلى المدائن – وكانت المدائن[٣٠] عاصمة ألاكاسرة بقرب بغداد، ارادا الشاعر أن يسافر المدائن فواجهها في يأسٍ والم شديدة، ووقف على اطلالها متفجع، وراح يبثها أشجانه عبره لمن اعتبر، وهى على عشرين ميلا من بغداد شرقا، وفيها إلى اليوم بقايا قصر كان لكسرى. وجد البحترى أن القصر كان لا يزال سالما فى ذلك الحين، وخصوصا بما كان فيه من رسوم كمعركة أنطاكية بين الروم والفرس،[٣١] تتصل على جدران الإيوان فوصف البحترى إيوان كسرى[٣٢] وهى من أحسن نماذج الوصف الحسى عند البحترى :[٣٣]

وَتَوهَّمْتُ أَنَّ كِسْرى أَبَرْوي ... زَ مُعاطِيَّ والبَلَهْبَذَ أُنْسِي
حُلُمٌ مُطْبِقٌ على الشَّكِّ عَيْني ... أَمْ أَمانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وَحَدْسي ؟
وكأنَّ الإيوانَ مِنْ عَجَبِ الصَّنْ ... لعة جوب فى جنب أركن جلس
يتظن من الكآبة إذ يب ... دُو لِعَيْنَيْ مُصَبِّح أَو مُمَسِّي
مُزْعَجاً بالفِراقِ عَنْ أُنْسِ إلْفٍ ... عَزَّ أَو مُرْهَقاً بِتَطْليقِ عِرْسِ
عَكَسَتْ حَظَّهُ اللَّيالي وباتَ ال ... مُشْتَري فيهِ وَهْوَ كَوْكَبُ نَحْسِ
فهو يُبْدي تَجَلُّدًا وَعليهِ ... كَلْكَلٌ مِنْ كلاكِلِ الدَّهْرِ مُرْسي
لم يَعِبْه أَنْ بُزَّ مِنْ بُسُطِ الدِّي ... بَاجِ وَاسْتُلَّ من سُتُورِ الدِّمَقْسِ

ففى هذه الأشعار شبه البحترى المحسوسات بمحسوسات أخرى فيما بينهن شبه مألوف متبعا فيها الشعراء القدماء فكان من عادتهم تشبيه الأماكن الخالية بالقبور والمبانى العالية بالجبال. وقصيدة الايوان ابلغ وأرقى وهى مثال لدقة الوصف وعلو الفكر والخيال عند البحترى، وقد تفوق

البحترى بها على معاصريه من الشعراء، وقال ابن المعتز "لولم يكن للبحترى إلا قصيدته السينية ووصف ايران كسرى فليس للعرب سينية مثلها، وقصيدته فى وصف البركة لكان أشعر الناس فى زمانه[٣٤]

وصف البركة : وأحسن قصائده فى الوصف قصيدة يصف بها بركة بناها المتوكل حيث قال الشاعر البحترى[٣٥]

ميلوا إلى الدار من ليلى نجيها - نعم ونسألها عن بعض أهليها
يا مَن رأَى البِرْكَةَ الحَسْناءَ رُؤْيَتَها - والآنِساتِ إذا لاحَتْ مَغَانيها
بِحَسْبها أنَّها مِنْ فَضْلِ رُتْبَتِها - تُعَدُّ واحِدَةً والبَحْرُ ثانيها
ما بالُ دِجْلَةَ كَالغَيْرَى تُنافِسُها - فِى الحُسْنِ طَوْراً وأَطواراً تُباهِيها ؟
أَما رأَتْ كالىءَ الإِسْلامِ يَكلؤها - مِنْ أن تُعابَ وَباني المَجْدِ يَبْنِيها ؟
كأَنَّ جِنَّ سُلَيْمانَ الذين وَلُوا - إِبْداعَها فأَدَقُّوا في مَعانيها
فَلَوْ تَمُرُّ بِها بِلْقيسُ عَنْ عُرُضٍ - قالَتْ : هِيَ الصَّرْحُ تَمْثيلاً وَتَشْبيها
تَنْحَطُّ فيها وُفودُ الماءِ مُعجِلَةً - كالخَيْل خارجَةً مِنْ حَبْلِ مُجْريها
كأَنَّما الفِضَّةُ البَيْضَاءُ سائِلَةً - مِنَ السَّبائكِ تَجْري في مَجاريها
اذاعَلَتْها الصَّبا أَبْدَتْ لَها حُبُكاً - مِثلَ الجَواشِنِ مَصْقولاً حَوَاشيها
فَرَوْنَقُ الشَّمْسِ أَحْياناً يُضاحِكُها - ورَيِّقُ الغَيْثِ أَحْياناً يُباكيها
إذا النُّجُومُ تَراءتْ في جَوانِبِها - لَيْلاً حَسِبْتَ سَماءً رُكِّبَتْ فيها

ففى هذه القصيدة وصف شاعرنا البحترى بركة الخليفة المتوكل بأسلوب رائع وقد افتتح قصيدته بنزعة بدوية جاهلية وقف فيها بدار ليلى – ثم انتقل إلى وصف البركة – التى هى غاية القصيدة، ففى رأى البحترى إنها بركة واسعة، صور البحترى بركة الخليفة المتوكل وبلغ من سرد جمالها ووساعتها بلوغا تنافسها فيه دجلة الشهيرة. ثم أتى البحترى بالصور المستمدة من التراث الإسلامى وذكر قصة سلمان عليه السلام وملكة بلقيس والجن مركزا على أن هذه البركة بلغ من جمالها غايتها حتى لومرت الملكة بلقيس عليها لقالت هى الصرح. ففى هذه القصيدة جمع البحترى بين وصف

البركة والصورة التراثية، وذلك ليصور البركة على اكمال صورها جمالا ورونقا وبهاء.[٣٦]

وصف السفينة والزو :

صور الشاعر البحترى للمنشآت الملحقة بالقصور وخاصة "الزو" وهو السفينة التى كان الخليفة يركبها للتفريح حيث قال :[٣٧]

أبَى يَوْمُنا فى الزَّوَّ إلا تحسُّناً لَنا بِسماعٍ طَبِّبٍ وَمُدَامِ
غَنِينا عَلى قَصْرٍ يَسِيرُ بِفتْيةٍ قُعُوْدٍ على أرَجائهِ وقِيامِ
تَظَلُّ البُزاةُ البيض تخطف حولنا جآجىء طير فى السماء سوام
تحدربالدراج من كل شاهق مخضبة أظفارهن دوام
فلم أركالقاطول يحمل ماؤه تدفق بحربالسماحة طام
ولا جبلا "كالزو" يوقف تارة وينقاد إما قدته بزمام

تقييم البحترى فى وصفه :

كان البحتري ذا خيال صافٍ وذوقٍ سليم. وهو من اطبع شعراء العرب. ويرى ان الشعر لمح، ومذهبه فيه مذهب امرئ القيس. أما أسلوب فى الإنشاء فيقوم على زخرف بديعي يأخذ به في اقتصاد وذوق، وعلى موسيقى ساحرة فهو يختار الألفاظ والتراكيب التي لا يشوبها تعقيد ولا غرابة ولا خشونة ياتى الكلمات موافقة للمعنى، تشتد في موقع الشدة وتلين في موقع اللين. وموسيقى شعر البحتري ذا شان رفيع. وهذا شائع ذائع بين الأدباء بأن الشعراء فى العصر العباسى كانوا متعودين بإنشاد الأشعار الوصفية كثيرا. وتدور أفكارهم فى مدح قصور الخلفاء والورزاء ورجال الحكومة ولم تخلو فطرة البحترى من ذلك. إلا أن وصفه ممتاز غنى بملامح جدية، فلما فحصنا شعره وجدنا فيها تلك الميزات التى أوصلته وأبلغته إلى ذروة سنام القدر والقيمة ومن هذه الأوصاف الصفاء الناقع والعذوبة البدواة الممسوحة بمسحة الحضارة.[٣٨]

واتفق نقاد الشعر القدماء على وصف البحترى بسلامة العبارة وحسن الديباجة وسمو الخيال. قال ابن رشيق "وأما البحترى فكان أملح صنعة من أبى تمام وأحسن مذهبا فى الكلام، يسلك فيه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة و قرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة"[٣٩]

تأثر البحتري بالشعراء العرب:

تأثر البحتري شعراء العرب كثيرا، خاصة بأبي تمام، (١٨٨-٢٣١ه) فأخذ كثيراً من افكاره وسلك طريقه، لكنه لم يأخذ الحكمة من بين أغراض شعره، ولا صبغة فلسفيته، ولقد تخير اختار الأسلوب وانتقى الألفاظ لتوضيح المعاني. وقد تجنب البحتري التعقيد، والألفاظ المستكرهة، والاستعارات الغريبة، وقد كان قديرًا في مدح الخلفاء كما كان شأن شعراء عصره، لكنه تفوق على جميعهم.[٤٠] ومن الثابت أن البحترى يتشبه بأبى تمام (٨٠٦-٨٤٦م الموافق ١٨٨-٢٣١هـ) فى شعره وسلك فى مذهبه وينحوه فى البدائع التى كان أبو تمام يستعملها.[٤١]

الخاتمة :

إن البحترى أخذ الوصف كعماد للشعر فإنه كان هو الموضوع القديم فى الشعر العربى- كان شعراء العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام يصفون الناقة والخيل والمعارك والحرب ونحوها – وتطور الشعر الوصفى بعد الإسلام مع تطور المدينة واتساع الفكر والخيال وتكاثر المعانى بتكاثر فروع العلم. اتسع وطال هذا المجال فى العصر العباسى بطريق وسيعة. والشعر الوصفى عند الشعراء باب من أبواب الشعر الكبرى فصار شعراء العرب يصفون المناظر والطبيعة والأبنية الجميلة وسائر ظواهر المدينة. ففى هذه الحقل فاق البحترى على شعراء عصره. طلع هذا الشاعر فى عصره كالقمر المنور فى ليلة البدر. وأتى بديباجة جميلة، وبراعة الوصف والتصوير خصوصا فى وصف الطبيعة ومظاهر العمران.

المصادر والمراجع :

١- شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، (القاهرة: دار المعارف ١٩٤٣)، ص ١٨٨
٢- معجم الأدباء، لياقوت الحموى (بيروت : دار إحياء التراث العربى، ١٩٣٤، ج-٧، ص-٢٢٦
٣- بطرس البستانى، أدباء العرب فى الأعصر العباسية (بيروت : دار نظير عبود، ب ت)، ص-٢١٢
٤- أبو الفرج الاصبهانى، كتاب الأغانى (القاهرة، ب ت) ، ج-١٨ ، ص-١٦٩
٥- بطرس البستانى، المصدر السابق، ص- ٢١٢.
٦- بطرس البستانى، المصدر السابق، ص- ٢١٢.
٧- انيس المقدسى، أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى، (ب-ت)، ص-٢٣٧
٨- انيس المقدسى، المصدر السابق، ص-٢٣٨
٩- انيس المقدسى، المصدر السابق، ص- ٢٣٨
١٠- د. العربى حسن درويش، الشعراء المحدثون فى العصر العباسى (الهئة المصرية ١٩٨٩م)، ص-١٦٥
١١- د. العربى حسن درويش، المصدر السابق، ص-١٦٥
١٢- انيس المقدسى، المصدر السابق، ص- ٢٣٨
١٣- إبن رشيق القيروانى، العمدة فى نقد الشعر وأدابه (القاهرة : مطبعة الهلال، ١٩٧٢م)، ج-٢، ص-١٢٥
١٤- إبن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، ج-٦، ص-٦٩
١٥- حنا الفاخورى – المؤجز فى الأدب العربى وتاريخه، (بيروت : دار الجيل، ١٩٩١م)، ص-٣٥١
١٦- الدكتور عمر فروخ، تاريخ الأدب العربى، بيروت : دار العلم للملايين، ١٩٨٢م، ج-٢، ص-٣٦٨
١٧- الدكتور عمر فروخ، المصدر السابق، ج-٢، ص-٣٦٨
١٨- ديوان، ج-٢، ص-١١٨٨
١٩- ديوان، ج-١، ص-٢٨٣
٢٠- د. العربى حسن درويش، المصدر السابق، ص-٢١١
٢١- حنا الفاخورى، المصدر السابق، ص-٣٦٥
٢٢- ديوان، ج-١، ص-٣٠٧
٢٣- حنا الفاخورى، المصدر السابق، ص-٣٦٥
٢٤- هو قائد من أهل الجزيرة، حارب بابك الحزمى، وولاه المعتصم على ديار مضر

٢٥- ديوان، ج-٢، ص-١٠٦٨
٢٦- حنا الفاخورى، المصدر السابق، ص-٣٦٥
٢٧- ديوان، ج-٢، ص-١٢٩٣
٢٨- د. العربى حسن درويش، المصدر السابق، ص-٢١٣
٢٩- حنا الفاخورى، المصدر السابق، ص-٣٦٥
٣٠- والمدائن: جمع مدينة، اسم لمجموعة من المدن أنشأها الغزاة والملوك عصراً بعد عصر، في منطقة جميلة قريبة من دجلة. وقيل أن "الاسكندر" بنى هنالك مدينة وسورها، ثم بنى "أنوشروان بن قياذ" المدائن وأقام بها هو ومن بعده من ملوك بني ساسان إلى أيام عمر بن الخطاب، وكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قلبها وسماها باسم، وكان فتح المدائن كلها على يد سعد بن أبي وقاص. وقيل إنها كانت بعاً بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة، فلما ملك العرب ديار الفرس واختطت الكوفة والبصرة انتقل إليهما الناس عن المدائن وسائر مدن العراق، ثم اختط الحجاج واسطاً فصارت دار الإمارة ، فلما زال ملك بني أمية اختط المنصور بغداد فانتقل إليها الناس، ثم اختط المعتصم سامراً فأقام الخلفاء بها مدة ، ثم رجعوا إلى بغداد. والمدائن اليوم بلدة صغيرة بينها وبين بغداد نحو أربعين كيلومتراً، وفيها بقايا الإيوان المشهو. (حنا الفاخورى، ج-١، ص-٧٤٢)
٣١- الدكتور عمر فروخ، المصدر السابق، ص-٣٥٦
٣٢- في المدائن من بناء كسرى أبرويز ولم يبق منه إلا الطاق، وهو مبني بآجر طول كل آجرةٍ نحو ذراع في عرض أقل شبر، قيل إن أبا جعفر المنصور هو الذي أمر بتخريبه عندما أراد بناء بغداد. والطاق عظيم في ضخامته، ولا يزال إلى اليوم مشمخراً في عزلته وانفراده، يروى للأجيال المتعاقبة خبر الممالك والدول، وحكاية الحياة التي تكتنفها عوامل الزوال. وكثيراً ما تردد الناس إليه ، وكثيراً ما وقف الشعراء عنده متأملين.
٣٣- ديوان، ج-٢، ص-١٠٥٥
٣٤- بطرس البستانى، المصدر السابق، ص- ٢٢٦
٣٥- ديوان البحترى، ج-٢، ص-١٢٨١
٣٦- حنا الفاخورى – المؤجز فى الأدب العربى وتاريخه، (بيروت : دار الجيل، ١٩٩١)، ص-٣٦٧
٣٧- ديوان، ج-٢، ص-١١١٣
٣٨- حنا الفاخورى، المصدر السابق، ص-٣٦٣
٣٩- ابن رشيق ، العمدة، ج-١، ص-٨٥
٤٠- بطرس البستانى، المصدر السابق، ص- ٣٠
٤١- د. العربى حسن درويش، المصدر السابق، ص-١٧١